

رفيق الحريري واستراتيجية التنمية البشرية والاجتماعية أكثر من ٣٢ ألف طالب جامعي و٢٧ مركزاً صحياً وثقافياً

تصاعد أعداد الطلاب في برامج التأهيل اللغوي والعلمي داخل لبنان وخارجه، وبالنمو المضطرد لعدد المستفيدين بين عامي ١٩٨٤ و ١٩٩٥، حيث استقر على ٣٢٣٠٠ طالب وطالبة. ان عدم قدرة مؤسسات التعليم العالي في لبنان على استيعاب كل هؤلاء من جهة، وسياسة المؤسسة في ان يحثك الطلاب اللبنانيون بالثقافات العالية ويطلعوا على التطور الحضاري والعلمي الذي حققه الغرب من جهة أخرى جعل الحريري يعمد الى إلحاق عدد كبير من الطلاب في جامعات أميركية وأوروبية في الخارج.

بالإضافة الى القروض الجامعية التي استفاد منها قرابة ٣٢٠٠٠ طالب وطالبة، تركزت نشاطات المؤسسة على ثلاثة برامج متكاملة، هي: - التأهيل الجامعي على الصعيدين اللغوي والأكاديمي تمهيدا للاتحاق بالجامعات والمعاهد داخل لبنان وخارجه. وتضمن هذا البرنامج تأهيل المستفيدين في اللغتين الانكليزية والفرنسية داخل البلاد وخارجها!

- التأهيل الطبي، وهو الذي ضمن للعشرات من الأطباء حملة الشهادات في الاختصاص العام الالتحاق بسنة تأهيلية في مواد نظرية وتطبيقية في مستشفيات لبنان، ومن ثم الحصول على مقعد للتخصص في لبنان.

- التوجيه والإرشاد المهني للطلاب، الذي تقوم به المؤسسة كل عام، بناء على واقع القوى العاملة في لبنان وحاجات سوق العمل.

ولا تمكن أهمية المؤسسة في أعداد الطلاب المستفيدين من برامجها فحسب، وإنما في نوعية الاختصاصات وأمكنت الحصول عليها وإيلاء الفتاة اللبنانية أهمية استراتيجية. فحلت فروع الهندسة في المرتبة الأولى بنسبة ٢٢٪، تلتها إدارة الأعمال ٢١٪، فالعلوم العامة ١٨٪، والعلوم الطبية ١٤٪ والعلوم الإنسانية بنسبة ٩٪. وتوزعت النسبة المتبقية على علوم أخرى. أما لجهة البلدان، فتوزع الطلاب كما يلي: ٧٢,٤٪ في لبنان، ١٧,٨٠٪ في أوروبا ودول شمال أفريقيا، ٩,٨٠٪ في الولايات المتحدة الأميركية. كما يلاحظ إقبال الإناث على الاستفادة من برامج التعليم خارج لبنان، حيث بلغت هذه النسبة في عام ١٩٩٠ ١٥٪، مقابل ٨٥٪ للذكور. لكن هذه الصورة

مسؤولية وتضحية وتفاعل واحساس مع المواطنين ومشاكلهم. فالأوطان لا تبني بالتعصب والتطرف، والانزلاق وراء الأهواء الشخصية، إنما تبني بالعمل الجاد المسؤول، وعندما نضع الوطن فوق الجميع، عندها يبقى الوطن، ويبقى الجميع. ولكن عندما يضع الجميع أنفسهم فوق الوطن، فمن المؤكد ان الوطن سيضيع، وسيضيع معه الجميع.»

التعليم من أجل المستقبل

تعود انطلاقة «مؤسسة الحريري» الى صيدا عام ١٩٧٩. وحتى عام ١٩٨٥، أنشأت المؤسسة «الجمع الثقافي والطبي في كفرالوس»، الذي ضم سبعة مراكز إنمائية ثقافية وتعليمية وصحية وطبية وخدمية ورياضية. لكن الحقد الصهيوني - الطائفي كان بالرصاد لهذا المشروع العملاق. فتعرض للتدمير والنهب أثناء الاجتياح الإسرائيلي وأحداث شرق صيدا على التوالي عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٥، وبلغت خسائره ٣٠٠ مليون دولار. أما الخسارة الأكبر، فكانت في حرمان لبنان من صرح علمي وخدمي كان الأول من نوعه في الشرق الأوسط.

ومنذ ان استقرت المؤسسة في بيروت عام ١٩٨٤، بدأت تولي التعليم الجامعي اهتماما شموليا، عبر تقديم «القروض» الى الطلاب الجامعيين وتأمين المقاعد الدراسية لهم، هذا فضلا عن دفع الأقساط وتكاليف المعيشة والإقامة وأثمان الكتب والنقل والضمان الصحي. إن اختيار بيروت مقرا للمؤسسة كان من أجل تأكيد صفة الوطنية على العمل الخيري من جهة، ولأن بيروت هي العاصمة التي تحتضن الجميع.

شهدت المؤسسة في انطلاقتها الثانية في بيروت نموا مذهلا، بعدما تبين ان الحريري يقدم «القروض» بسخاء ومن دون اذلال، إلا لأصحاب الحاجات المادية والراغبين في متابعة تحصيلهم العالي. وإذا علمنا انها لا ترغم الطلاب على إعادة «القروض» تاركة لهم قرار إعادتها، يتبين لنا ان هذه «القروض» كانت في الحقيقة منحا وهبها الحريري الى اللبنانيين.

يتضح النمو المذهل لمؤسسة الحريري من خلال

التعليم وبناء الإنسان وبناء الوطن، هدف متكامل كان الشغل الشاغل للشهيد رفيق الحريري، الذي اعتبره مشروع حياته كلها. وهناك إجماع في لبنان والعالم على ان الحريري كسر من خلال مؤسسته (مؤسسة الحريري) حكر التعليم العالي والحصول على الرعاية الصحية - الاجتماعية على أبناء الطبقات المسورة والغنية، إذ أفسح في المجال أمام أبناء الطبقات المتوسطة ومحدودي الدخل متابعة تعليمهم العالي وحصولهم على رعاية صحية - اجتماعية مستمرة. وتعتبر مؤسسة الحريري الأكبر والأكثر تميزا في الوطن العربي على الصعيد الإنمائي والتنمية البشرية. ولا تجلى إنجازاتها في عدد من استفادوا من برامجها، الذين تجاوزوا ٣٢ ألف طالب وطالبة وبلغت كلفتهم نحو ٩٠٠ مليون دولار أميركي، ولا في نوعية الخدمات الصحية - الاجتماعية التي تقدمها وحجمها على مستوى الوطن (١٠٥ مليون خدمة)، ولا كذلك في المشاريع التنموية المتعددة الأهداف لـ «جمعية بيروت للتنمية الاجتماعية»، بل كذلك في المعاني الإنسانية والثقافية والتنموية. لقد عبر الحريري عن هذا بعبء استراتيجي عندما قال: «إن أملي في فتح أبواب الجامعات والمعاهد العليا أمام المواهب والكفاءات المغمورة، كان الحاضر وراء إنشاء المؤسسة. فالإنسان هو ثروة لبنان الأساسية والعناية بالإنسان اللبناني تعليما وثقافيا وتنويرا هو الوسيلة الفضل لبناء لبنان الغد.»

ولا يمكن فهم هذه الاستراتيجية الشمولية القائمة على الإنسان، إلا إذا عرفنا فلسفة الحريري في التربية الوطنية. فدلّت تصرفاته على بعد عن التعصب والطائفية والمذهبية والمناطقية. فهو ابن الجنوب، ويعمل من أجل لبنان، وهو المسلم، ويفتح أبواب مؤسسته أمام جميع اللبنانيين من دون استثناء، وهو البعيد عن الوطن (أنشاء اقامته خارج لبنان) ويحس بقضايا ومعاناته. هم واحد تملكه: كيف يؤسس للبنان جديد في زمن يعمل فيه الكثيرون على دك جسور التعايش بين عائلته الروحية؟ وفي هذا يقول: «الوطن، أي وطن ليس مجرد منتج تومه ساعة نشاء، وتركه ساعة نشاء. إن الوطن

سرعان ما تتغير بالنسبة الى الفتيات اللواتي تلقين التعليم الجامعي داخل لبنان، إذ بلغت ٣٦,٦٧٪ مقابل ٦٣,٣٣٪ للذكور. وعلى كل حال، فنسب الإناث اللواتي تلقين التعليم خارج لبنان، تعتبر مرتفعة، هذا إذا ما أخذنا في عين الاعتبار العوائق التي تعترض الفتاة في السفر والإقامة خارج البلاد.

إن تشجيع المؤسسة الطلاب على الدراسات العليا يظهر بوضوح في الأرقام التالية: بين عامي ١٩٨٤ و١٩٩٩، أنجز ٨٣٥ طالبا وطالبة أطاريح في مختلف الاختصاصات النظرية والبحثية والتطبيقية، منهم نحو ٢٩٩ في الولايات المتحدة الأمريكية، و٥٢٦ في أوروبا، و١٠ في البلدان العربية ولبنان.

ويسبب تردّي الوضع الاقتصادي في لبنان خلال الحرب، كادت مؤسسات تربوية أن تغلق أبوابها لولا استراتيجية الحريري التي قضت بعدم اغلاق أية مؤسسة تعليمية. فتولت مؤسسة الحريري منذ عام ١٩٨٥ مسؤولية ثلاث مدارس في بيروت: «ثانوية الحريري الأولى» و«ثانوية الحريري الثانية»، و«مدرسة الحريري الثالثة». وسبق تلك الجهود إنشاء «ثانوية رفيق الحريري» في صيدا عام ١٩٨٥، التي كانت في الأصل مدرسة تابعة لجمع كفرالوس. وفي عام ١٩٩٦، أسس الحريري في صيدا مدرسة شبه مجانية هي «مدرسة الحاج بهاء الدين الحريري». واليوم يتلقى قرابة ١٠ آلاف من التلاميذ التعليم الجيد في كل مدارس الحريري. وبمبادرة منه ومتابعة دقيقة، حصلت بيروت في عام ٢٠٠٤ على عشر مدارس جديدة كانت في أمس الحاجة إليها.

وعلى خط مواز، اهتم الحريري بالتعليم العالي. فقام أثناء الحرب وبعدها بدعم مؤسسات التعليم العالي وجمعيات خيرية لتمكينها من الصمود أو تطوير نفسها. وفي عام ١٩٩٧، ساهم الحريري مع الجامعة اللبنانية في إنشاء «المعهد الجامعي للتكنولوجيا» بالتعاون مع الفرنسيين. وفي ١٩٩٩، بدأت «جامعة الحريري الكندية» في المشرف تستقبل الطلاب في اختصاصات الهندسة الكهربائية والإلكترونية والعلوماتية. فضلا عن ذلك، تقوم المؤسسة

برعاية «جمعية خريجي مؤسسة الحريري» والإشراف على المركز الثقافي في صيدا، وتتولى إقامة الندوات ومعارض الكتب والفنون ورعاية النشاطات الثقافية والعلمية الاجتماعية وترميم الأماكن الأثرية والتراثية وتكريم المتفوقين.

الصحة حق مشروع لكل إنسان

انطلاقا من هذه الرؤية، وتحسسا بأوضاع محدودي الدخل، أسس الحريري في مطلع عام ٢٠٠٠ «مديرية الصحة الاجتماعية»، ووضعه لها هدفا استراتيجيا، وهو «تقديم رعاية صحية أولية شاملة ومستمرة ذات جودة عالية لكل إنسان» بكلفة شبه مجانية. إن المتابعة المستمرة عبر البطاقة الصحية لكل مريض (نحو ١٥٠ ألف بطاقة) وتقديم المشورة اليه مباشرة أو عبر الإنترنت، والتركيز على الوقاية وزيادة الوعي الصحي عند الناس عن الأمراض العادية والمزمنة عبر المحاضرات والمتابعة الصحية المدرسية، تهدف كلها الى استباق وقوع المرض أو التخفيف من مضاعفاته ومن كلفة الفاتورة الصحية.

وفي مجال الصحة والأمن الاجتماعي، تتدخل المديرية مع الفرد والأسرة، فيساعد اليتيم ضمن أسرته وتؤهّل الأم مهنيا، وتقدم المساعدات المادية الشهرية للأرامل، وتجري متابعة الجنسين في مراحل الطفولة المبكرة والبلوغ والزواج، فضلا عن الأمومة وإقامة الدورات التثقيفية الصحية والاجتماعية والسلوكية.

يمكن اختصار إنجازات مديريةية الصحة بإنشاء ١٢ مركزا موزعة في كل أنحاء لبنان، وإجمالي الخدمات التي قدمت الى المواطنين خلال ٦٠ شهرا على إنشائها، والتي تقدر بأكثر من ١,٥ مليون خدمة. أما عن الموازنة السنوية

لهذا المشروع الكبير، فتقدر بما بين ٤-٥ ملايين دولار أميركي.

التعاوض الاجتماعي والتنمية البشرية

واستكمالا لأهداف التنمية البشرية، أسس الحريري عام ٢٠٠٠ «جمعية بيروت للتنمية الاجتماعية» لتنفيذ برامج تربوية واجتماعية وإنسانية تتعلق بتنمية المهارات والتنمية الفكرية والتنمية التربوية وخدمة المجتمع والنوادي الدائمة والندوات والمساعدات الاجتماعية والرمضانية. ويقوم بهذه البرامج والنشاطات ١٥ مركزا اجتماعيا وثقافيا في بيروت وضواحيها، انطلاقا من المركز الأم في قردان، وتطال أكثر من ٤٨ ألفا فرد ومستفيد. أما مجموع الذين استفادوا من مكتب «مساعدات الحريري» خلال عام ٢٠٠١، فيبلغ ٧٣٧٢ مستفيدا. وفي السنة نفسها، وزعت الجمعية ١٣٠ ألف حصة غذائية على العائلات المحتاجة بمناسبة شهر رمضان المبارك.

أخيرا، إن الحس الإنمائي - الوطني الذي تميز به الشهيد رفيق الحريري يظهر بوضوح، على سبيل المثال لا الحصر، من خلال آلاف الخريجين إعادة إعمار وسط بيروت. فهذه جميعها شواهد على ان بناء الحجر والبشر كانت بالنسبة الى الراحل العملاق استراتيجية متكاملة لبناء الإنسان وتوفير الظروف الحياتية والمعيشية الكريمة له.

د. عبد الرؤوف سنو

* أستاذ في الجامعة اللبنانية وعميد سابق لكلية التربية.